

### الفروق الدلالية في النظم عند عبد القاهر الجرجاني

أ. محمد الصالح زغدي جامعة الوادي

ملخص:

نظر عبد القاهر الجرجاني إلى اللغة العربية نظرة ثاقبة ، وعرف أهمية النحو ومعانيه في تحقيق الإعجاز ، وفي هذا المقال حاولت الكشف عن الوجوه والفروق الدلالية للكلمات عندما تتموضع في سياقات مختلفة ، وتعبّر بدقه عن الأغراض والمقاصد . كما أردت توضيح ما أدركه الجرجاني في أن اختلاف البنية التركيبية ينجر عنه اختلاف وفروق في المعنى ، يخضع لغرض المتكلم ومقصده ، ولذا يعدّ عبد القاهر الجرجاني من أوائل الباحثين الذين تعرضوا للإعجاز رابطتين بين المعنى والسياق ، كما عرفوا أن المزينة لا تكمن في اللفظ وحده ولا في المعنى وحده ، وإنما مصدرها هو التركيب ، ومن هنا أدرك العلاقة بين النحو كنظام و المعنى كنتيجة ومحصول يتحقق بين طرفي التواصل وهما المتكلم و السامع

### Semantic Differences in Structures according to Abd al-Qahir al-Jurjani

Abd al-Qahir al-Jurjani had examined the Arabic Language from a grammatical perspective, stressing on the importance of grammar in creating the inimitability. In this article I tried find out the semantic differences of the words when putting them in different contexts; and I tried clarify what exactly al-Jurjani had realized concerning the role of the difference in the syntax structure in creating different results on the level of meanings, so he knew that the meaning is not to be in the word itself alone but in whole structure. Hence, Al-Jurjani realized the relation between the Grammar as a system and the Meaning as a result in the communication process between the both sides of communication.

توطئة:

يعد عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة علامة بارزة في تراثنا اللساني العربي وفي الدراسات العربية الحديثة .

ومن يقرأ دلائل الإعجاز يجد عبد القاهر واعيا بالمنهج المتبع فلم يكن كتابه في النحو التقليدي ولا في البلاغة التقليدية وإنما غاص في أعماق الظاهرة اللغوية فبين الأغراض والمقاصد المختلفة على مستويات مختلفة : نفسية واجتماعية ومعرفية ولذلك وضع أسس نظرية النظم أو معاني النحو لبيان الإعجاز في القرآن الكريم ، وقد استفاد من جهود سابقه من العلماء و هم يحاولون وضع أيديهم على مواطن الإعجاز ، وقد انقسموا إلى فريقين مختلفين ، الأول مال إلى اللفظ لا يرى شيئا غيره تكمن فيه المزينة وأن كتاب الله معجز بلفظه ، و الثاني رأى أن الإعجاز كامن في المعنى لأن العلاقة بين اللفظ والمعنى

كعلاقة الخادم بالمخدوم ، و اللفظ خادم والمعنى مخدوم ، والمخدوم دائما أشرف من الخادم ، وعليه مال عبد القاهر إلى المعنى ، ولكنه بعد إعمال الفكر أدرك الخطأ الذي وقع فيه ، وشق طريقا جديدا في بيان الإعجاز القرآني يقوم على التركيب و معاني النحو .

## 1. مفهوم النظم في اللغة :

بمعنى الجمع والضم والنظام والربط والتأليف والذي يراد به ضم الكلمات المتخيرة على الوجه الذي يقتضيه المنطق وفي لسان العرب هو : التأليف ينظمه نظما ونظاما ونظمه فانتظم ونظمته اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله ، ومنه نظمت الشعر... والنظام الخيط الذي ينظم اللؤلؤ. النظم على مستوى الحروف والكلمات والجمل وهو ما يقوم على التقليد لمأثور المستعمل من كلام العرب باعتباره مقياسا للصواب والخطأ<sup>(1)</sup> .

والسؤال المطروح هو : ماذا نستفيد من آراء عبد القاهر في أداء العملية التعليمية ؟ وكيف يكون ذلك؟.

لقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى ثلاثة مصطلحات أساسية في نظرية النظم وهي : الوجوه، والفروق، والموضع ، ولذلك فرّق بين قوانين النحو ومعانيه ، ووظّف النحو في خدمة البلاغة .

## 2. الفروق في الخبر :

إن ما يجب أن يحيط به الدارس أن الخبر جزء من الجملة ولا تتم الفائدة بدونه ، وأن لتقديمه وتأخيره فروق في المعنى يدركها المتبصرون في اللغة ، فإذا قلت : أزيد منطلق ؟ فأنت تطلب أن يقول لك نعم هو منطلق أو يقول لا ما هو منطلق .

ويعقب عبد القاهر الجرجاني على ذلك بقوله : " فإذا قلت : زيد منطلق ، فقد أثبت الانطلاق فعلا له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك : زيد طويل وعمرو قصير " <sup>(2)</sup> .

- كما لا تتعرض في قولك زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد <sup>(3)</sup> .

أما إذا جاء الخبر فعلا فإنه يحمل دلالات تختلف عن مجيئه اسما حيث يقول : " وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك ، فإذا قلت زيد هاهو ذا ينطلق فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا يزاوله ويزجيّه " <sup>(4)</sup> .

وفي حالة الإثبات هناك فروق في الدلالة دقيقة يركز عليها عبد القاهر في الدلائل حيث يقول : " اعلم أنك إذا قلت زيد منطلق كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان لا من زيد ولا من عمرو فأنت تفيد ذلك ابتداء ، وإذا قلت زيد المنطلق كان كلامك مع من عرف أن انطلاقا كان إما من زيد وإما من عمرو فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره " <sup>(5)</sup> .

"فإذا قيل لك زيد المنطلق ، صار الذي كان معلوماً على جهة الجواز معلوماً على جهة الوجوب ، ثم إنهم إذا أرادوا تأكيد هذا الوجوب أدخلوا الضمير المسعى فصلا بين الجزئين فقالوا : زيد هو المنطلق"<sup>(6)</sup> .

أما إذا نكرت الخبر فإن له أحكاماً تختلف عنه عندما يرد معرّفاً ويفصل الجرجاني الفروق في قوله : "إنّك إذا نكرت الخبر جاز أن تأتي بمبتدأ ثان على أن تشركه بحرف العطف في المعنى الذي أخبرت به عن الأول وإذا عرفت لم يجز ذلك .

تفسير هذا أنّك تقول زيد منطلق وعمرو ، تريد وعمرو منطلق أيضاً ولا تقول زيد المنطلق وعمرو ذلك لأنّ المعنى مع التعريف على أنّك أردت أن تثبت انطلافاً مخصوصاً قد كان من واحد فإذا أثبتته لزيد لم يصح إثباته لعمرو"<sup>(7)</sup> .

وإليك هذه الوجوه في الخبر بينها فروق في المعنى بحسب الموضع .

أ. زيد منطلق: الخبر نكره تعلم السامع بما يجله من أن الانطلاق كان ولم يعلمه لزيد.

ب. زيد المنطلق: الخبر معرفة، الكلام مع من عرف أن انطلافاً قد حدث إما من عمرو وإما من زيد فأنت تعلمه أنه من زيد دون غيره.

ج. زيد هو المنطلق: يوجد فاصل بين المبتدأ والخبر فيه تأكيد على أن الانطلاق من زيد.

د. المنطلق زيد : يكون المعنى حينئذ على أنّك رأيت إنساناً ينطلق بالبعد فلم يثبت ولم تعلم أزيد هو أم عمرو فقال لك صاحبك : المنطلق زيد أي ذا الشخص الذي بالبعد منك هو زيد لا أحد غيره"<sup>(8)</sup> .

وتقديم المسند إليه على الفعل يفيد تقوية الحكم وتوكيده لأهميته ، فقولك جاءت زينب مخالف : زينب جاءت ونحوها يفيد تغيير المعنى النحوي من حال إلى حال. "فالأول يفيد الإعلام عن خبر ابتدائي لا يعلمه السامع والثاني عن خبر غير مجهول وإنما يجهل بعض حيثياته"<sup>(9)</sup> .

كما أن التقديم يستعمل لأغراض بلاغية متعددة تفهم من السياق مثل الاختصاص ومراعاة نظم الكلام وموسيقاه.

لقد جاء في " دلائل الإعجاز " الكلام على ضربين :

ضربٌ أنت منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت ( خرج زيدٌ ) وبالانطلاق عن عمرو ( عمرو منطلقٌ ) وعلى هذا القياس"<sup>(10)</sup> .

من خلال ما تقدّم نلاحظ كيف تتقارب البلاغة مع قوانين النحو في التعبير عن الأغراض المختلفة ، ولا يدرك ذلك إلا من خبر اللغة وأبحر في أعماقها ومجاهيلها .

### 3. الفروق في الحال :

وكذلك الأمر للفروق بين وجوه الحال وبين وجوه الشرط ، عليك أن تعرف كيفية التوظيف حتى يحقق الهدف ولهذا قال عبد القاهر الجرجاني :

"ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"<sup>(11)</sup>.

ويقصد الجرجاني بذلك النحو الجمالي ، ويأتي ذلك مثلاً بالتفريق بين جملة " قد خرج " وجملة " هو قد خرج " إن الأولى تقدّم معلومة محددة للمخاطب ، أما الثانية فتتضمن تقديم الضمير فيها إشارة إلى أن المتكلم يدرك شك المخاطب في تلك المعلومة " الخروج " ويلزم أن يعدل عن بنية الإخبار إلى بنية التوكيد والتحقيق لإزالة ذلك الشك.

بيد أن ذلك المعنى ليس كافياً حين ينتقل ذلك التركيب من الاستقلال إلى التبعية. ومن أمثلة ذلك وقوعه في صلة الكلام وضعه بعد واو الحال ، مثل جئته وهو قد ركب ، فالشك في الجملة السابقة أمكن من الشك في جملة جئته وقد ركب ، وذلك لأن التقدم للضمير في جملة الحال الأولى أكثر دلالة على الحاجة إلى التوكيد والتحقيق لإزالة قوة الشك في نفس المخاطب ، وهو ما عبّر عنه الجرجاني في قوله " فَإِنَّ الشكَّ لا يقوى حينئذ قوته في الوجه الأول ، وهو ما يعني اختلاف درجات الشك في القوة ، وأن كل درجة منه تستلزم إعادة صياغة العبارة لتناسب عملية تصاعد الشك "<sup>(12)</sup>.

والماضي يرد بالواو وبغيرها ولكن دخول قد عليه يصبح لازماً وهذا ما عبّر عنه الجرجاني بقوله :  
" ومما يجيء بالواو وغير الواو الماضي وهو لا يقع حالاً إلا مع قد مظهرة أو مقدرة أما مجيئها بالواو فالكثير الشائع كقولك: أتاني وقد جهده السير، وأما بغير الواو فكقولك :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السراويل<sup>(13)</sup> .

أما مع صيغة المضارع فلا يصلح فيها إلا أن يبني الفعل على اسم مقدم مثل: رأيتَه وهو يكتب ، وتؤدي مخالفة تلك القاعدة النحوية إلى تكوين جملة غير صحيحة نحويًا ، وهذا ما عبّر عنه الجرجاني بقوله : " لم يكن شيئاً تفسيرا وحكما رأيتَه ويكتب "<sup>(14)</sup>.

وتنقسم الحال باعتبار فائدتها إلى مؤسسة ومؤكدة ، فالمؤسسة ويقال لها المبيّنة وهي التي لا يستفاد معناها بدونها نحو جاء سليم راكباً ، ونحو جاءني زيد مسرعاً .

والمؤكدة هي التي يستفاد معناها بدونها وإنما يؤتى بها للتوكيد نحو ابتسم ضاحكاً<sup>(15)</sup> .

أما بخصوص رابط الحال ، فالأصل في الربط أن يكون بالضمير نحو وقف الخطيب يتكلم ونحو : جاءني يسرع وقد يكون مقدراً نحو : اشتريت اللؤلؤ مثقالاً بدينار أي مثقالاً منه. فإذا لم يكن الضمير وجبت الواو نحو : جاء سليم والشمس طالعة ، ويجوز اجتماع الواو مع الضمير نحو جاء التلميذ وكتابه في يده، ونحو جاءني وهو مسرع.

وتجب الواو في مواضع منها :

- إذا كانت ماضوية غير مشتملة على ضمير صاحبها مثبتة كانت أو منفية ، غير أنه تجب قد مع الواو المثبتة نحو بلغت المدينة وقد بزغ الفجر ورحلت عنها وما طلعت الشمس ونحو: جاءني وقد أسرع .

"وإذا كانت جملة الحال ماضوية مشتملة على ضمير صاحبها فالأكثر فيها أن ترتبط به وبالواو وقد معاً نحو ، جاء الرسول وقد أسرع"<sup>(16)</sup> .

#### 4. أسلوب الشرط:

الشرط أسلوب لغوي ينبي بالتحليل على جزئين الأول منزل منزلة السبب والثاني منزل منزلة الجزاء يتحقق الثاني إذا تحقق الأول ، وينعدم الثاني إذا انعدم الأول<sup>(17)</sup> .

نحو: إن جاء خالد جئت فجملة الشرط تتألف من عبارتين لا استقلال لإحدهما عن الأخرى .

وكان عبد القاهر الجرجاني يجعل من الشرط وما عطف عليه نحو قوله تعالى " ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً عظيماً " ، جملة واحدة وكان يقول : "الشرط كما لا يخفى في مجموع الجملتين لا في كل واحدة منهما على الانفراد ولا في واحدة دون الأخرى"<sup>(18)</sup> .  
والجرجاني كما يقول الدكتور مهدي المخزومي على حق لأن هذا هو ما يستفاد من أداة العطف التي هي نص على شركة ما بعدها وما قبلها في الحكم.

وللشرط أدوات كثيرة منها الجازمة ومنها غير الجازمة كما أن الاستعمال يختلف باختلاف السياق. وقد زعم أهل المعاني أن (إن) تستعمل مع المشكوك في وقوعه ، فقال الخطيب في الإيضاح أن الأصل في إن ألا يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه كما تقول لصاحبك إن تكرمني أكرمك ، وأنت لا تقطع بأنه يكرمك<sup>(19)</sup> وهذه الصيغة تشبه صيغة إن تخرج أخرج .

إن استعمال صيغة الماضي مع الشرط يكون في المقطوع بوقوعه ، وإن الأصل في إذا أن يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه.

وقد تستعمل إن مع الماضي كثيراً كما في قوله تعالى : "إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين"<sup>(20)</sup>

ونحو قوله تعالى: "فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله"<sup>(21)</sup> .

#### 5. وجوه الشرط :

وللشرط وجوه كثيرة منها ما يلي :

- إن تخرج أخرج : يفيد المستقبل، ويقابل في الخطاب اليومي المتداول بيننا (تأكل نأكل ، تمشي نمشي ، تقعد نقعد...)

- إن تخرج فأنا خارج : يقابل في المتداول الدارج بيننا (لو كان تقبل أنا قابل..)

- أنا خارج إن خرجت : يقابل في المتداول بيننا (أنا قابل لو كان تقبل ...)<sup>(22)</sup> .

والأمر نفسه بالنسبة للفروق بين أدوات الربط نحو: ما ، لا ، كلاهما يستعمل للنفي ، ولكن ما تنفي الحال ولا تنفي الاستقبال نحو: ما كتب الدرس ، لا أكتب الدرس . وكذلك لم ، لن ، كلاهما يفيد النفي فلم تحوّل الفعل المضارع إلى وجهة خلفية نحو: لم أراجع دروسي ولن تتركه يستمر في المستقبل نحو: لن أسافر إلى العاصمة . إن الوقوف على الغرض والإحاطة بالمقصود أرقى من معرفة الإعراب ، وهذا ما يجب معرفته ونحن نعلّم النحو وكثير منا يحفظ القاعدة النحوية جيدا ولكن إذا تكلم أو كتب وقع في الخطأ والزلل .

#### 6. عبد القاهر وفصاحة اللفظة:

لقد صرف عبد القاهر الجرجاني كلّ جهده من أجل الدفاع عن العلاقات النحوية التي تفيدها في الجمل وأنكر أقوال بعض سابقيه الذين نسبوا الجمال إلى اللفظة ، فلا يرى جمالا للفتة خارج نظمها ، ولذا انفرد بهذا الرأي ، ونقد النصوص وبين نواحي القبح والجمال على أساس العلاقات النحوية وما تحمله من معنى .

ومن هنا نفهم أن تعلم الألفاظ المفردة لا يعطي حذق اللغة بقدر ما يعود ذلك إلى معرفة ضم هذه الكلمات إلى منوال ونسج خاضع للعقل : " اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ... كما يذكرك من تستوصفه عمل الديباج المنقش ما تعلم به وجه دقة الصنعة أو يعمل به بين يديك حتى ترى عيانا / كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء؟ وماذا يذهب منها طولاً وماذا يذهب منها عرضاً ؟ وبم يبدأ وبم يثني وبم يثلث ؟ = وتبصر من الحساب الدقيق ومن عجب تصرف اليد ، ما تعلم به مكان الحذق وموضع الأستاذية " .<sup>(23)</sup>

ولذا فقد شبه الجرجاني النظم بالنسج ، فكما أن الخيوط تنتظم في آلة النسيج فكذلك الألفاظ تنتظم في النص .

ولقد استفاد من عصره الذي امتاز بتطور وازدهار صناعة النسيج ، ولاحظ الخيوط كيف تتقاطع لتصنع نسيجاً محبوباً ، ولاحظ أيضاً أن الكلمات تتقاطع أفقياً وعمودياً ليتكون النص . وقد أشار إلى أن المعاني قائمة في النفس ثم تتحول إلى خطاب أو إلى نص ولهذا تكون الألفاظ تابعة للمعاني " وإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق " (24)

#### خاتمة:

محصول القول فإنّ الإفادة في الكلام لا تكون للفتة المفردة ، وإنما من خلال موضعها من النظم الذي يبيّن اتساقها وانسجامها في إطار النص ، وأنّ للألفاظ عندما تتسق في بنى كبرى موضع ووجوه وفروق دلالية تنكشف للضليع بأغوار اللغة والمتمرس بالمقامات المختلفة في التعبير عن الأغراض والمقاصد " ممّا يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض ، من حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا السامعين عن الأغراض

والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ، و يكشف لهم عن ضمائهم قلوبهم " (25) وهذا ما وصل إليه عبد القاهر فكانت له يد السبق في التأصيل لعلم لسانيات النص العربية.

#### قائمة الهوامش والمراجع:

1. د. صالح بلعيد- نظرية النظم – دار هومة -2004، ص92.
2. عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز- دار المعرفة بيروت- ط2 1998 م ، ص123.
3. المصدر نفسه ، ص124.
4. المصدر نفسه ، ص124.
5. المصدر نفسه ، ص126.
6. المصدر نفسه ، ص126.
7. المصدر نفسه ، ص126.
8. د. بشير إبرير – دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي – منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية- جامعة عنابة ، ص103.
9. د. صالح بلعيد- نظرية النظم ، ص136.
10. د. فاضل صالح السامرائي – الجملة العربية والمعنى – دار ابن حزم بيروت لبنان- ط1 ، 2000م، ص22.
11. د. سعيد حسن بحيري – القصد والتفسير في نظرية النظم – الانجلو المصرية-1995م، ص25.
12. المرجع نفسه ، ص68.
13. د. فاضل صالح السامرائي – الجملة العربية والمعنى ، ص146.
14. د. سعيد حسن بحيري – القصد والتفسير في نظرية النظم ، ص68.
15. السيد أحمد الهاشمي – القواعد الأساسية للغة العربية – دار الكتب العلمية بيروت لبنان – 1354هـ، ص231.
16. المرجع نفسه ، ص232.
17. د. مهدي المخزومي – في النحو العربي – نقد وتوجيه- دار الرائد العربي بيروت لبنان-1986م، ص284.
18. المرجع نفسه ، ص285.
19. المرجع نفسه ، ص290.
20. سورة يوسف الآية (26)
21. سورة البقرة الآية (230)
22. د. بشير إبرير – دلائل اكتساب اللغة ، ص104.
23. دلائل الإعجاز ، ص24 نقلا عن د. صالح بلعيد – نظرية النظم ، ص137.
24. د. بشير إبرير – دلائل اكتساب اللغة ، ص109.
25. عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز دار المدني بجدة السعودية ، ط3 ، 1992 ص43.